نحو تربية إسلامية معاصرة

للدكتور محمد إبراهيم كاظم

التربية في العصر الحديث هي التي نقدمها للصغار والكبار بما يسمح لهم، ويتيح لهم، ويعطيهم من القدرة ومن العزم ما يعطي لهذه الحياة معنى ولهؤلاء الأفراد مقدرة على مسايرة الحياة والإمساك بأعنتها والانطلاق بها إلى حيث يشاء الله، عز وجل.

وإذا شاع عن هذا العصر أنه عصر التقنية أو عصر العلم أو عصر الانفجار المعرفي أو عصر المنهج والتخطيط إلى آخر هذه المسميات فإن هذه الصفات على صدقها لا تمثل الوصف الكافي، لأن الحاضر مهما زخر لا ينفصل عن الماضي كما لا ينفصل عن المستقبل.

والحياة – انبسطت أو تعقدت – إنما تكتسب مغزاها من الإطار الذي توجد فيه – والحياة حياة الإنسان معنى – إما الانبساط أو التعقيد إما الحركة أو الهدوء أو النشاط، بل الضجيج الذي يملأ الدنيا ويشغل الناس ويستغرق الإنسان، فإنما ذلك كله سمة تمتلئ أو تفرغ إلا من القليل من المعنى، من هنا كان من الممكن أن تكون الحياة مشكلة – وهذا الموقف عصيب – عكس المفروض – ولكن هذه المشكلة على أية حال مشكلة معاصرة حقيقية لا تقف عند حد كونها قضية فكرية في العالم

المتقدم والناس فحسب، أو في العالم الإسلامي بالذات، بل هي قضية ملموسة تراها في عيون الحيارى في الشمال والجنوب والشرق والغرب.

نراها بين المتقدمين التعساء والمتخلفين البائسين وإذا كان العصر الحديث مشكلة فإن صميم المشكلة هو معنى الحياة نفسه.

معنى الحياة:

وبدون أن يكون لدينا تصور محدد عن الحياة، وماذا نفعل على هذه الأرض وإلى أين المصير دون إجابة ولو مجملة، دون تصور ولو بيننا وبين أنفسنا فسوف تستمر الحياة، لأن هذه إرادة الخالق، ولكنها سوف تستمر فقيرة سطحية لا تغطي ولا تشفي ولا تروي. وهذا هو الموقف المشكل الذي تجمعت عناصره.. وهو مشكلة حتى ولو لم يرها صاحبها كذلك، لفرط انشغاله، أو لفرط ابتعاده عن الإحساس بحياة الإنسان بالأسباب المتعددة لذلك، وبالنسبة للعصر الحديث، ففي خضم التقدم المادي الهائل، والتقدم التقني العظيم ومع ضجة الآلة، وضجيج الأحداث، وصدام السلاح، وتحركات الإنسان السريعة، وقفزاته الهائلة، وطموحه غير المحدد بهدف، في خضم هذا كله مؤسساً على تقليد أوروبي في الصراع بين العقيدة والحركة منذ العصور الوسطي، أعادها إلى الفكر اليوناني بعناصره المشرقة وتخلفه العقدي، في خضم هذا كله نسي الإنسان نفسه، وعشي عن أن يدري إلى أين المصير.

التربية والتعليم في الإسلام:

كان لابد من هذه المقدمة فهي الإطار الذي يحوي، والإطار الذي يحدد، ويرسم الخلفية أو الأرضية التي تبرز عليها ما نريد أن نقول.

فإذا انتقلنا الآن إلى التربية، فسنجد أول ما نجد أن كلمة "إصلاح" أو كلمة "تربية وتعليم"، إنما هي ألفاظ ومصطلحات ترتبط بجذور من صميم نخاع هذه الأمة وفكرها، وعلى كثرة ما نقلنا وترجمنا وأدخلنا إلى العربية من الألفاظ والمصطلحات الحديثة فكلمتا "تربية" و"تعليم" ليستا ترجمات – بل هي كلمات ومفاهيم أصلية تعطي دلالات العربية الخاصة إذا نظرنا إليها بهذا الشكل.

فالتربية هي مصدر ربى، وهي من ربا يربو ربوا، أي زاد ونما، وربيته تربية، أي غزيته، وربى جمع وزاد، وربى الصبي، أي رباه حتى أدراه.

كل هذا مادة اشتقاقية واحدة، أي أننا لو رجعنا إلى المعاجم العربية لوجدنا أن التربية هي عملية الزيادة والنماء، عملية التقدم، عملية الإضافة التي تؤدي بالإنسان إلى المزيد.

ولأن المزيد مفهوم نسبي، كان من الضروري أن يكون له، وأن يكون للتقدم والتربية إطار ينبثق منه ويشتق عنه.

والتربية الحكيمة إذن – تربية لها معنى، ودلالة، أي أن يكون لها هدف واتجاه، التربية، التربية الحكيمة اتجاه إلى التقدم.. إلى الأمام بخطوات وضمن إطار واضح.

أما التعليم فهو مصدر علم، بمعنى ترك علامة، والعلامة تميز، وإذا كانت علم في المعاجم تعني عرف، وعلم الأمر وتعلمه تعني أتقنه ترك الأثر المعرف المميز.

وحيثما كان هناك أثر أي أثر – كان هناك تعليم، وبتفاوت عمق الأثر كان تفاوت عمق التعليم ودرجته، وعندما لا يظهر أثر مميز معرف – مهما بذل من جهد – فإن هذا الجهد لا يجوز أن نطلق عليه لفظ التعليم.

ونقل المعرفة وحيازتها، ما لم يترك أثراً لا يكون تعليماً، وإذا لم يترك أثراً، ولم يتسبب في نماء، ولم يحدث إضافة أو زيادة، فإنه لا يكون تربية.

التربية والتعليم إضافة ونماء وتقدم وحركة. وبقدر ما يكون هذا كله في إطار إسلامي ومضمون إسلامي، وفي اتجاه إسلامي، تكون التربية الإسلامية – ابتعادا، اقتراباً. والإسلام عقيدة وإجراءات، فليس الإسلام كلمة تقال أو شعاراً يرفع، بل هو رسالة وعقيدة حية تستمر في الحياة، وتستمر في الحركة وتستمر في الاندفاع والهداية أو القيادة، قيادة الحياة، وقيادة الإنسان.

وعلى ذلك فمن وجهة نظر الإيام بالإسلام كالعقيدة الصحيحة، فإن الإسلام ليس معتقداً نظرياً فحسب – بل إجراءات محددة أيضاً – حتى ولو تفاوتت الاجتهادات في ذلك، ولقد صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال: "إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه

العمل"، وتفاوت الالتزام في السلوك والقول والعمل ينم عن تفاوت الإيمان، فهناك الإيمان القوي، وهناك ما هو أقل من ذلك".

وإذا كان الإسلام هو التسليم لإرادة الله، والاستسلام لذلك، فمستويات التسليم والاستسلام لهذه الإرادة هي مستويات إسلام الفرد، أو إسلام الجماعة أو إسلامية التربية.

التربية الإسلامية:

وعلى هذا الأساس، فالتربية الإسلامية هي التربية التي تتحقق بها إرادة الخالق، وحيثما تحققت إرادة الخالق عبر نظام تربوي معين فهو نظام تربوي إسلامي صحيح، وأيضاً فإن التربية تكون مختلفة عن كونها إسلامية بنفس قدر تقصيرها، أو قصورها عن تحقيق إرادة الخالق عز وجل.

وإرادة الله التي نتحدث عنها ليست رفعاً للمصاحف، وليست مفاهيم غامضة، بل كلمة حق يراد بها حق. إرادة الله مقروءة في كتاب الله – القرآن – موجودة في سنة الرسول ومن تبعه، معروفة محددة ومبوبة، وأصول الإسلام وجوهره، ليس موضع خلاف بين المسلمين من أهل القبلة.

وإذا كانت التربية الإسلامية – هي آية تربية تشكل وتؤدي إلى وجود المناخ المحقق لإرادة الله عز وجل، أي المؤدي لرسوخ العقيدة والالتزام بالسلوك الإسلامي، فإننا لا يمكننا أن نحدد لهذه التربية الإسلامية شكلاً محدداً أو أشكالاً، فإذا نجح نظام تربوي معين، في مرحلة ما في تأدية

مهمته الإسلامية - فلابد وأن نتطور بهذا النظام التربوي - في ضوء وضمن إطار الأصول الإسلامية الصحيحة المستمرة - لكي يأخذ الشكل الذي تتحقق به المقدرة على مجابهة مشكلات العصر الحديث أومشكلات العصر المتجددة.

وإذا كنا نحيا في عصر تقني يقوم بالآلة ويذخر بالعلم الطبيعي، ويموج بالمشكلات التي تشتق من هذا وذاك فإن نظام التربية وشكلها الإسلامي إنما يكون هو الشكل الذي تتحقق به رسالة الإسلام في أحلى وأجلى صورها.

التقدم قبل الإسلام والتقدم بعد الإسلام:

وهنا لابد من وقفة نناقش فيها موقف الإسلام نفسه من التقدم والعصرية والذي يدعونا إلى ذلك هو أن السؤال المطروح، وليس هناك ما يبرز تجاهله. كما أننا لا نستطيع أن نستطرد إلى حديث عن التربية الإسلامية في العصر الحديث قبل أن ننتهي إلى رأي واضح في موقف الإسلام نفسه عن العصر.

ونقطة البدء هي أن نطرح تصورنا للتقدم وتعريفنا له في النقاط الآتية:

1- التقدم الإنساني هو الاستفادة والقدرة على الاستفادة من أقصى ما يصل إليه الإنسان.

2- التقدم هو إنتاج والقدرة على إنتاج الأفضل والأفضل هو الأكثر وفاء بالغرض والأكثر تحقيقاً للهدف.

3- التقدم نسبي وضروري.

4- التقدم كفكرة وإجراءات لا ينفصل عن أهداف الإنسان وقيمه ومعتقداته، هو جزء من مفهوم متكامل للحياة نفسها، وأبعادها ونطاقاتها.

5- والتقدم - إذن - حركة، ولكنه حركة مرتبطة بإطار ومعنى، وليست حركة جزافية غير موجهة، أو عفوية بلا ارتباطات أو ضوابط.

التقدم - إذن - له شقاه السلبي والإيجابي، أو الاستهلاجي والإنتاجي، كما أنه نسبي ديناميكي، وأقصى ما نصل إليه اليوم يختلف عن أقصى ما وصلنا إليه أمس، أو ما نصل إليه غدا - نفس معنى التعبيري آخر طراز "فآخر طراز للسيارات سنة 1980 وهو يتقدم طراز 1975 وهو آخر ما وصلنا إليه في ذلك الوقت".

كذلك الاستفادة من أقصى ما وصلنا إليه - فإذا كانت الإضاءة الكهربائية بصورة ما هي آخر ما وصلنا إليه لمجتمع إنساني، كان اتباع هذا الأسلوب يمثل عصرية وتقدماً، بالمقارنة مع أسلوب استخدام مصابيح الغز - على الرغم من أن مصابيح الغاز كانت تمثل أقصى تقدم في يوم ما حتى الشموع - كانت تمثل صورة عصرية متقدمة في يوم ما.

وعندما كانت مصابيح الغاز أوفى بأعراض الإضاءة من الشموع، كان إنتاجها يمثل حضارة أكثر تقدماً من الحضارة التي لم تكن تنتجها،

وكـان شـيوعها يمثـل حضـارة أكثـر تقـدماً مـن الحضـارات الـتي لم تسـتفد باستعمالها على نطاق مماثل من الشيوع والانتشار.

وعلى الرغم من أن الحضارات لا يحكم تقدمها أو تخلفها أساليب الإضاءة فيها فحسب أو حتى نواحيها المادية الملموسة، كما سنرى إلا أن عناصر لا يمكن إغفالها أيضاً.

وهكـذا – فعنـدما أقـول: فـرد متقـدم أو مجتمـع متقـدم فإنمـا أقصـد كلتى الناحيتين الإنتاجية والاستهلاكية أو الاستفادة من أقصى ما وصلنا إليه والإسـهام في الإنتـاج والتقـدم بـه، وإذا كانـت – أقصـى – تمثـل زيادة مستمرة الحركيـة في الكفـاءة وأداء الغـرض بصـورة أقـل جهـداً ونفقـة، فـإن التقدم يصبح فكرة تقوم على تصور ديناميكي نسبي مستمر، في إطار من فلسفة تسبغ عليها المعنى الذي يبرز ما يبذل من جهد وعناء.

وإذا كـان معـنى هـذا التقـدم والعصـرية فـلا يمكـن أن يكـون مـادياً صرفاً ولا تقنيـة مجردة، إذن فكـل تقنيـات الغـرب وتقـدميتها لا تجعـل منـه بالضرورة مثال التقدم، كما أن مشكلة تخلف العالم المتخلف لا يحلها سيره الحثيث على درب الغرب، وترسم خطاه، والاستغراق في ذلك على غير هدى من معنى يضيء المسار.

ومن موقع الإسلام فنحن لا نرفض التقدم المادي ولا نزهد في ثماره، ولا نكره أن نشارك في صنعه وجني ثماره، وليس هناك من يحرم الاستفادة من هذه الخيرات التي أتاحها ويسرها الله تعالى لعباده:

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }"الأعراف 32"

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } "لقمان 20".

بل إن الإسلام يفرض على المسلم أن يشارك في عملية التقدم المادي وهي إحدي واجبات المسلم في العصر الحديث بدونها لا يكون له كلمة ولا كرامة ولا شأن، بل ولا القدرة على الجهر بكلمة الحق وتبليغ إرادة الله، ناهيك عن الدعوة إليها أو الذود عنها، أو حتى مجرد العيش في عزلة عن الأذى والمهانة والاستبداد، ولكن كما ذكرنا - فإن هذا التقدم المادي على ضروراته لا يكفي، وأن أكثر ما نصل إليه ليس طائرات أو دبابات أو إضاءة ميسرة فحسب، بل إن هذه النواحي وهذه الثمار المادية للتقدم، إنما هي تقدمات تكتسب حقيقتها من مدى إضافتها لقدرات الإنسان وإثراء حياته ومدى إضافتها لروح الإنسان ومقدرته على الحياة الحرة وشعوره بالكرامة والعزة والطمأنينة والأمن والإسلام، وهو يحس

على جعل الأرض دار عمران أكد على أن تكون دار أمن وطمأنينة وسلام، فنحن نحيا على هذه الأرض، ولكن حياتنا عليها ليست كل شيء وليست نهاية المطاف وليست المستقر، ومهما اطمأننا ومهما انتعشنا وانشغلنا ومهما سعدنا وشبعنا وروينا فنحن ضيوف يطول بنا الأمد أو يقصر.

والإسلام لا يفرق في نظرته إلى الحياة بين حياة على هذه الأرض وامتداداتها اللانهائية ولا عبر الأبد في الحياة الآخرة، فلله عاقبة الأمور {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأمور} "الحج 41" أي أن الإنسان يحاسب ثواباً أو عقاباً على ما يفعله على هذه الأرض باعتبارها جزءاً من هذا الامتداد السرمدي { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} "الجاثية 21".

إن معنى الحياة: هو معنى النجاح والانتصار والفشل – الشعور بالرضا وتحقيق الذات أو الإحساس بالتمزق – العجز أو الانهزام أو القصور عن الوصول إلى المبتغي.. كل هذه المفاهيم والأحاسيس إنما تتكون وتقيم أو تقمع أو تغزز ضمن إطار الحياة المستمرة، تتكامل فيها حياتنا على الأرض مع حياتنا الأخرى.

والحياة شاملة لعلاقتنا مع أنفسنا، ومع الناس ولعلاقات الناس والمجتمعات بعضها مع بعض، ولعلاقات الإنسان مع البيئة من غير

الإنسان فعلاً وانفعالاً بالجماد والأحياء من نبات وحيوان ومعادن الأرض وسوائلها وغاراتها وصور الطاقة فيها.

وضمن هذا يكون العمران والتقدم أو الخراب والتخلف {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ "54" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} "الحج 45-46".

والتقدم والعصرية بعض ما هو مطلوب من المسلم على هذه الأرض، إلا أن على الإنسان مسلماً أم غير ذلك - أن يدرك أن هذه الدفعات التقدمية مادية وأخلاقية معنوية تختلف في مبدئها وأصولها عن المسلمين عنها عند غيرهم، فهي عند المسلم قصور في إطار إسلامي، بل إنه لا يكفي أن يكون السلوك حميداً في ذاته { فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} "الأنبياء 94".

ولا يسعنا إلا أن نشعر بالتضاؤل المتناهي أمام المعنى الشامخ لبدء الأمور { بسم الله الرحمن الرحيم} وللمؤمن أن يشعر برعشات الفرق وهو يشهد ويحس الفارق الضخم بين ما يفعل من خير نابعاً عن مستويات أخلاقية عليا، ولكن في فراغ من الإيمان وبين هذا الفعل باسم الله الرحمن الرحيم.

من هذا المنطلق ترتبط الحياة العصرية والتقدم بهذا كل الارتباط في الشرق أو الغرب على السواء، وفي المجتمعات المسماة بالمتقدمة،

والمجتمعات المسماة بالنامية أو المتخلفة جميعاً، ودون ذلك لا تتكامل عناصر الحياة ولا تحقق من الرضا والسعادة والأمن ما يعطيها المقوم الكافي لمفهوم التقدم، وإن أعطانا الوفير من تفسيرات الحيرة والقلق والضياع عند المتقدمين والمتخلفين في هذا العصر – مع اختلاف المسببات.

فالتقدم التقني – في حد ذاته – في فراغ من الإيمان وعزلة عنه، لا يمكن أن يؤدي إلى تقدم، ولا يمكن أن يتيح تقدمية صحيحة، ودليلنا هو واقع العصر نفسه في مآسي الأفراد وعلى صفحات وجوههم، وفي سلوك المجتمعات وسجل الأحداث فيها.

وبقدر ما أصاب هذه المجتمعات من عشي عن أن ترى الإطار الشامل نجد أن ما تحقق في بعض جوانب التقدم لم يحقق للإنسان الطمأنينة والأمن والرخاء والتحقيق النفسي والاجتماعي للذات.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الحديث عن المجتمعات المسماة بالمتقدمة فحسب، فليس التقدم المادي شراً يزول بالتخلف، فالمجتمعات المتخلفة تتحمل من البؤس، وتتردى إلى ما هو أشد وأنكى.

وإذا كانت هذه هي إحدى بدهيات العصر الحديث، فلا أقل من أن نراها كذلك، ولا أقل من أن ننبه إلى هذا الجزء المفقود في تقدم المجتمعات المسماة بالمجتمات المتقدمة والمتخلفة من باب أولى.

ومفتاح الحل لهذه المشكلة الإنسانية المعاصرة بين أيدينا، وعلى كواهلنا تقع مسئولية التحرك نحو "كل" إنسان شامل سعيد.

القوى البشرية الإسلامية:

والآن لابد من إجابة محددة لسؤال محدد: من نحن؟ وبماذا نؤمن؟ وما هو الإجراء التطبيقي السلوكي المميز لما نؤمن به؟ وليس التساؤل أكاديمياً، كما أن الهدف منه ليس مجرد إجراءات محددة يمكن الالتزام بها في حياتنا كأفراد متفرقين، فالقضية عامة، والمطلوب إجابة مضيئة، وحل يمكن إلى جانب تطبيقه أن نذيعه بين الناس، وندفع بهم لكي يروه، ونرفعهم لكي يستسلموا له ويؤمنوا به، وينقادوا لأهدافه وكل هذا جزء من مسئولية المسلم نحو الحركة الإنسانية المعاصرة المتقدمة مادياً، والمتخلفة فيما غير ذلك.

النظم الاجتماعية أو السياسية القائمة، أو المنشودة لا تصنع الإنسان وإن كانت تتفاعل معه - تفعل فيه ويفعل فيها - المجتمعات ليست مفاهيم منعزلة، ولكنها تفاعلات بين قوى بشرية قائمة.

ومجتمعات المسلمين تفاعلات بين قوى بشرية مسلمة، تعلو وتهبط، وتقوى وتضعف، حسب نوعية قواها البشرية.

وإذن، فما هي القوى البشرية الإسلامية المتاحة؟ وما هي نوعية القوى البشرية المسلمة التي تستطيع أن تتحمل كواهلها هذه الأعباء؟ من هو المسلم؟ وما هي صفات وسمات هذا المسلم الذي يستطيع أن يتحمل مسئولية أن يكون عصرياً بالمعنى الذي أشرنا إليه؟ وأن يتحمل مسئوليته كمسلم في تكوين مجتمع إسلامي سليم مطمئن سعيد؟ ثم أن يتقدم بهذه

الرسالة للعالم كله لكي يشارك في عملية إرشاد المجتمع الإنساني كله للسعادة والطمأنينة والمحبة والسلام؟ ولنؤجل الآن النقاش حول موقف المسلم الذي لا يريد أن يكون عصرياً لأنه لا يستطيع، والذي يكره العصر ويسخط على أهله، لأنه لا يستطيع أن يشارك فيه، ولا يستطيع أن يتجاهل وجوده.

إن الفرد لا يتكون بالتمني، والمجتمعات لا تتكون، ولا تنفعل ولا تتجه، ولا تمرض، ولا تصح كيفما اتفق، ولكن لكل شيء سببا.

والتربية - وهي الجهد المقصود لإحداث ذلك - لا يمكن أن تكون عملية هلامية الأبعاد، لا يمكن أن تكون صحيحة ولا شعاراً ولا موقفاً، لابد أن تكون خطة وسياسة وإستراتيجية، لا يمكن أن تكون إجراء معيناً، ولكنه خطر طويل من إجراءات مستمرة في إطار واضح المعالم محدد الأهداف والإجراءات والمسالك.

وعلى الرغم من أننا كثيراً ما نسمع أن للتربية فعل السحر، فنحن ننفي ذلك، لأن ذلك أقرب إلى التمني من الواقع، وكل ما هناك أن الجماهير العريضة في كثير من بلاد العروبة والإسلام تمتلئ إيماناً بالتربية والمدرسة.

وآثار هذا الإيمان نراه ضمن ما نراه من شواهد أخرى، فيما تخصصه هذه المجتمعات من طاقات تكرسها للتربية على ندرة المتاح من هذه الطاقات.. وعندما نجد الشعوب الفقيرة تدفع الملايين من الأموال

والملايين من الأطفال لكي يتعلموا ويتربوا، دون أن يساورهم الشك أو التردد أو مراجعة النفس في هذا الذي يفعلونه.

إن المرء ليقف بكل جدية أمام هذا المشهد ليراجع نفسه في صدق، عن دلالة هذا السلوك القائم على الاعتقاد الراسخ في جدوى التعليم، وعن الأبعاد للنظام لأي تشكيل في هذا التعليم القائم، والمسئولية الرهيبة عن الصمت الذي قد يفرضه تيار جارف من هذا القبيل أو همهمات شاحبة لا يسمعها أحد.

وإذا سمحنا لأنفسنا أن نكرر تحليلنا البسيط للتربية، وهي من الفعل "ربى" أي "نمى" بتشديد الباء والميم – فالتربية هي عملية تنمية: تنمية الجد وتنمية الفكر وتنمية الإيمان وتنمية المجتمع، وما لم يكن كذلك فليس تربية.

إن المعيار الذي نحكم به على جدوى التربية في مجتمع من المجتمعات إنما هو الأثر الذي نلمسه في نجاح هذه التربية، فالنجاح هو مدى الاقتراب من الهدف.

وإذا كنا نتحدث عن التربية المدرسية لهذا الذي يتخرج من المدرسة فنحن نتساءل إلى أي حد هو قادر على مجابهة التحديات التي انتقاها وتلك التي فرضت عليه فرضا.

وبقدر ما أراه ناجحاً في مجابهة هذه التحديات تأسيساً على ما أقامت به المدرسة، يكون ما ننسب إلى المدرسة من نجاح، وبصرف النظر عما تمنحه من شهادات، وما يحصل عليه من درجات – إن المعيار هو

أين موضع النمو؟ وأين مجال النماء؟ إن العبرة هي أن يكون للجهد التعليمي المبذول أثر نمو كبير وقيماً أفضل وأن يتجه إلى معاني أوضح وأوسع أفقاً، وأرحب مجالاً.

وبهذه المعايير نتساءل إلى أي مدى نحن نعلم؟ وإلى أي مدى نحن نربي؟ وإلى أي مدى نتخلف عن القيام بذلك، على الرغم مما نبذله من جهود، ومن طاقات؟ ذلك لأن المسألة ليست مسألة جهود تبذل - فالجهود المنتجة التي تحقق المرجو منها.

إن التربية التي تعني بها أي مجهود مبذول داخل المدرسة وخارجها دون متابعة أو تقويم، أي لقاءات طلابية مع مدرسين، أي تفاعل بين الطلاب، أي تدريس من كتب أو مذكرات، أي قراءات، هذه التربية مهما شغلت وارتفع ضجيجها ليست بالضرورة تربية منتجة، وليست بالضرورة تربية، بل إن من الخرافة أن نشيع عنها أنها تربية، ومن الضلال ألا نعلن ذلك، ولكن التربية الحكيمة المنتجة التي تسير وفق خطة ما تلبث أن تعطي ثمارها.

هذه التربية لها - حقيقة وصدقاً - فعل السحر - بل إني لا أعلم أن شيئاً في العصر الحديث له فعل السحر مثل التربية - إذا استوفت شروطها، وقامت على أصولها الصحيحة.

وليس هناك وسيلة لحل مشكلات العصر الحديث للمجتمعات، وبخاصة المجتمعات الإسلامية المدركة لحقيقة رسالتها وأبعاد مسئوليتها مثل التربية الإسلامية.

التربية الإسلامية والمدرسة:

لقد انتهينا إلى أنه لا يجوز الفصل بين النواحي المادية والمعنوية في الناس، وإلى أن التقدم التقني يكتسب معناه من زيادة قدرة الفرد والمجتمع على التقدم والانطلاق لتحقيق المعاني التي يؤمن بأنها معان صحيحة، ومن هنا – وبالدرجة الأولى – كان الحرص على تحقيق هذا التقدم والسيطرة عليه، والمشاركة فيه أحد والدعوة إليه مقيماً هذا كله على قوى بشرية واعية وقادرة – هذه القوى البشرية الواعية الفاهمة القادة – لا توج فجأة ولكن نتيجة لإستراتيجية تربوية إسلامية بالمعنى الذي حددناه – ولا يمكن أن تكون هذه التربية الإسلامية تربية مدرسية فحسب.

إن المدرسة الحالية في المجتمعات العربية والمسلمة ينوء كاهلها بما تحمله من أعباء ولا تستطيع أن تحمل أعباء إضافية جديدة في وضعها الحالى كما أن للمدرسة – كأي مؤسسة – طاقة وحدوداً لما تستطيعه، وإن كانت هذه الحدود يمكنها أن تمتد بتعاون المؤسسات الأخرى، إلا أنها تنكمش، بل وتتقوقع بدون التعاون والتنسيق.

التربية الإسلامية التي نتحدث عنها تربية شاملة – وتعرف حدودها أيضاً فيما تستطيعه وما نحتاج فيه إلى التنسيق مع غيرها، مثل قطاعات الصحة والاقتصاد والسياسة والتاريخ، لأنها تعرف أننا إذا شئنا الدقة في التعبير فنحن لا ننمي إنساناً فقط – بل نوجهه ونقوده إلى الظروف التي يتفاعل معها فتنطلق قدراته، وتنمو مواهبه.

والإنسان في مراحل حياته المختلفة يتجه إلى مصادر متعددة من مصادر التربية – وما المدرسة إلا أحد هذه المصادر في بعض المراحل.

وعملية التربية والتعليم – بمعنى التأثر والنمو تريد بالحياة نفسها، وببدء الحياة وقبل ميلاد الإنسان قد تبقى آثار ما تعرض له واضحة ممتدة.

وعندما يولد – فإن الظروف التي يولد فيها تترك بصماتها عليه ثم تكون أمه مصدره الأول، ثم الأسرة ثم يكبر فيشارك الأقران الأسرة آثارها – حتى تصل إلى المرحلة التي لا ينبغي أن يكون نموه مستقراً على روافد محدودة مما يتلقاه بالصدفة غير المقصودة مما يلتقطه من حوله – فيحتاج إلى مدرسة – مؤسسة متخصصة تنظم وتنسق وتركز مجمل الخبرات التي يتفاعل معها منطقاً إلى مزيد من النمو.

ولكن المدرسة لا تحل محل المؤسسات الأخرى التي سبقتها – بل تعمل إلى جانبها – حتى لو تمكنت من أن تطغى عليها في ظروف معينة، وفي جميع الحالات فهناك المصادر المنظمة للتربية والمصادر غير المنظمية.

فالإنسان منفتح، يستقبل الآثار من كل ما يحيطيه به من حياة معها – وإذا قلنا على سبيل المثال إن المصادر التربوية هي البيت والأفراد والشارع والعقيدة الشائعة والمؤسسات الإعلامية المتاحة – إلى جانب المدرسة – فهذه المصادر تتناوب في مدى تأثيرها على الإنسان وعلى المجتمع – بل إن آثارها قد تختلف بصورة ديناميكية في غاية التقيد.

فالمدرس الجيد قد يجب "لا نقول يلغي" تأثير المدرسة بكاملها – كما قد يجب تأثير المنزل أيضاً – فيملأ حياة التلميذ بصورة لا تتيسر بدونه – إلا أن مدرساً دون ذلك في الجودة – سوف يتخلى عن دوره لغيره من الأنشطة بصرف النظر عن اتجاهها أو توجيهها.

ونفس الشيء بالنسبة للبيت – فبعض البيوت إنما تمثل بيئات تربوية صادقة عميقة الأثر في اتجاه سليم أو غير سليم – وبعض البيوت تترك أقل الآثر في أبنائها.

والوضع الأمثل الأصح هو التوازن بين هذه المصادر والتوفيق بينها لحساب التقدم، ولكن هذا الوضع الأمثل يختلف عن الواقع في كثير من الأحيان.

المجتمعات الإسلامية:

عندما تبلغ الأمية في العالم أكثر من 80% بالمائة – فلابد من أن ننبه إلى ظاهرة خطيرة – وهي صعوبة الاعتماد على دور البيئة، ودور البيت يماثل دور البيئة والبيت في المجتمعات المسماة بالمجتماعات المتقدمة – وسيظل التكامل بين البيئة والمدرسة مفتقداً، ولنضرب مثلاً لبيئتين إحداهما بعيدة عن العمران والحياة الحديثة والأخرى بالغة التقدم، فإن إلقاء محاضرة على أهالى البيئتين ينقل مفاهيم واتجاهات مختلفة أشد الاختلاف، بل إن نفس الألفاظ والإيماءات لا تحمل نفس المعاني – والإنسان إنما يسبغ على ما يستقبله من المعاني في ضوء الخلفية التي ينبثق منها وينحدر عنها.

وأنه من الضروري أن نحدد على وجه صحيح واقعي ما تستطيع أن تقوم به البيئات التي ترتفع فيها نسبة الأمية، ويذيع فيها التخلف الفكري والعزلة التاريخية.

واستطراداً – فإن المدرسة في مثل هذه الظروف من أعباء إضافية لا تلقي أصلاً على المدرسة في الجتمعات المتقدمة.

وهكذا تصبح المشكلة مشكلتين: مشكلة أن المدرسة بحكم انتمائها لبيئة مختلفة أقل قدرة وكفاءة عن نظيراتها في المجتمعات المتقدمة – ثم مشكلة أن المدرسة لا تتلقى من عون البيئة ما تتلقاه نظيراتها في البيئات المتقدمة – بل على العكس – فإنها كثيراً ما تجد من البيئة المقاومة والتعويق.

وواقع المجتمعات الإسلامية اليوم – واقع لا يرضي المسلم، ولا يعين المدرسة – وهذه القضية الهامة لابد من مجابهتها بحزب وصدق، وأن يعمل حسابها في أي تخطيط سليم – لابد من أن نتحسب لها ولابد من أن نعرف في ضوء إيماننا بالهدف أن المشكلة ليست قدراً نقف عاجزين حياله – بل مشكلة إذا جابهناها عالجناها – ووجدنا لها ما نحتاجه من حلول.

وإذا اتجهنا إلى دفع المجتمع إلى التقدم والعصرية، فلابد من تهيئة أسباب ذلك، وضمن هذه الوسائل قيام المدرسة العصرية التي تستطيع أن تعطي الظرف الوضعي أو مجموعة الظروف الموضعية التي تتيح للفرد والمجتمع أن يتقدم وينمو.

ولكن المدرسة الحديثة لا تقوم في بيئة غير حديثة – لأن المدرسة لا تكون إلا حيث تنتمي، والحديث العصري لا ينتمي للتخلف غير الحديث – والمدرسة الحديثة لا توجد بقرار – ولابد من أن يكون هناك تجاوب مستمر بين مستوى المدرسة ومستوى البيئة والمجتمع — ولا يوجد اندهاش إذا كانت المدرسة في المجتمعات المتخلفة أقل مما نريد، ومما ينبغي أن يكون. وطبيعي ألا يكون علاج الموقف بإنكار الواقع ولا التورط في المكابرة أو اليأس.

كما لا ينبغي ولا نستطيع أن نترك المدرسة فريسة للبيئة وتنحدر بها إلى أسف بجذب مستمر واستنزاف دائم –كما أننا لا نستطيع أن نفرض على البيئة المتعثرة مستويات لا تستطيع كواهلنا أن تتحملها. ولقد قدم العصر الحديث نفسه حلولاً غير تقليدية لهذا الموقف عن طريق مخترعات حديثة في تقنية التعليم، وما يسمى بالأنشطة التعويضية التي تعوض البيئة جزئياً على الأقل عما فيها من تخلف، بإتاحة الحد الأدنى من الخبرات التي لابد منها لتحريك البيئة إلى الأمام، والسماح لها بمزيد من القدرة على الاستفادة من المدرسة، وفي نفس الوقت تخفيف الضغط الخانق عليها.

وعلى ذلك تعتبر هذه الوسائل والأساليب بعض أدوات التربية الإسلامية المعاصرة التي لا يصح التسامح في الاستفادة منها من زاوية، أن التربية الإسلامية هي التربية التي تسهم بتهيئة الظروف، لتحقيق إرادة الله، وفي ظل هذا الجوهر نريد أن نتجه بالتربية التي تنبثق عن الإسلام، وتتجه

إليـه أن تكـون معاصـرة، بـل إننـا نخلـص مـن هـذا كلـه إلى أن التربيـة الإسلامية الآن بالضرورة تربية معاصرة وإن لم يكن العكس صحيحاً.

ولابـد إذن مـن أن تكـون معينـة علـى تهيئـة الظـروف الموضعيـة للأفـراد والمجتمع لتحقيق أهداف مجتمع المسلمين في أن يكون مجتمعا إسلامياً – مجتمعاً يقبل التقدم المادي – بل يقبل عليه، ولكنه يستخدم هذا التقدم المـادي لإعطـاء الحيـاة مقوماتهـا وقوامهـا ضـمن إطارهـا الصـحيح الـذي لا يخـرج بهـا مـن مجـال المعـنى إلى مجـال العبـث، ولا يخـرج بهـا عـن الإطـار الإسلامي فتصبح الحياة نفسها عبئاً على المسلم من كثرة ما يعانيه وهو يـرى الحيـاة تفـرض عليـه التنـازلات والحلـول الوسـطى فيمـا يـراه صـحيحاً سليماً صادقاً.

التنازلات والحلول الوسطي في حياة المسلم:

وعـبر قـرون ماضـية كـان المسـلم يتجـه إلى أن يحيـا حيـاة إسـلامية كاملة، وسوف تظل رغبة المسلم على فهم ما بين المسلمين من تفاوت في الإيمان والالتزام بالإسلام، وسوف تظل رغبة المسلم في أن يجد ويحيا حياة إسلامية بلا تنازلات.

أقـول حيـاة إسـلامية بـلا تنـازلات – لأن هنـاك حيـاة إسـلامية مـع تنازلات – وهي الحياة الإسلامية التي لم نستطع – لسبب أو لأسباب – أن تنطلق إلى مستويات العصر – فصعب على المسلم أن تكون حياته إسـلامية، كمـا صـعب عليـه أن تكـون عصـرية – فلـم يجـد أمامـه الحلـول

الوسطي. وإذا كان مفروضا على المسلم أن يعيش في العصر الذي وجد فيه – قابلاً أو رافضاً – فقد أصبح على المسلم أن يحيا حياته كمسلم – بينما كثير من قضايا الحياة أمامه معلقة فكرياً، ولكنه لا يستطيع إلا أن يتعامل معها واقعاً فيدخل هذا ضمن ما نسميه بالتنازلات.

وصحيح أن الإسلام أباح بعض المحظورات عند الضرورة، ولكن أن تفرض الضرورة وأن تشيع المحظروات – فهذه تنازلات تؤرق المسلم، وتجعل حياته قلقه لا تطاق.

ولأن الكثير من العناصر الحياة الحديثة تستورد من الشرق والغرب، فإن الكثير من هذه العناصر غريب عن مزاج المسلم، كما في النظام النقدي الذي تقوم عليه التجارة والصناعة، وكما في طراز العمارة الجديدة والأزياء، وأساليب الترويح والترفيه، وتقديم الطعام وتناوله وغير ذلك من مظاهر الثقافة الوافدة، عظمت أو تفهت.

وكان على المسلم – مضطراً – أن يقبل بهذا التطور في حياته مع استمرار إحساسه بالقلق يتحين الفرصة للاستقرار في حياة إسلامية بلا تنازلات.

وليس هناك ما يدل على أن هذه حالة نهائية دائمة، بل الأرجح أن المسلمين قادرون على تغيير الظروف ونقطة البدء هي أنفسهم. وهذه بالدرجة الأولى مسئولية التربية، وهي بالضرورة تربية إسلامية واضحة – تحدد مفاهيم إجرائية لعلاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالمجتمع في إطار إسلامي من علاقة الفرد بالله عز وجل.

وضمن هذه العلاقات تكون كل الأنشطة والتفاعلات الإنسانية والاجتماعية والمجتمعية – كما يصبح هدف الفرد – تحقيق ذلك – أي أن تحقيق حياة عصرية تكون التكنولوجيا والعلوم في خدمتها وفي ركابها – ولكن في إطار من الإيمان والهدف الأسمى – فلا تكون التكنولوجيا أو ثمارها أهداف الإنسان – بل وسائله لتحقيق ما أمر به الله من كرامة الإنسان وشعوره بمسئوليته وقدرته على حمل الأمانة التي قبلها الإنسان.

وسوف تكون أدوات التربية كل المخترعات الحديثة – سواء في التقنية أو النظريات العلمية التي تعين الإنسان على معرفة أعمق وأرسخ، أو تعين على القدرة على التعامل أو فهم نظريات الاتصال، أو تعين على استخدام وسائل أكثر إيضاحاً وأكثر بياناً بما يسمح للصغير والكبير أن ينطلق إلى مزيد من النمو، ومزيد من القدرة على مقاومة التحديات، كما ينبغي أن نضيف – أن المفكر المسلم لابد من أن يلاحظ أن حركة الحياة الحديثة ليست نمطاً طارئاً يستمر بعض الوقت ثم تستقر الأمور – فالأرجح أن الأمور لو استقرت فسوف تستقر على الحركة والتغيير – وإننا لقادرون على مجابهة هذه التغيرات والمستحدثات المتجددة بوسائل إسلامية في أصولها دائماً – كيفما كانت أشكالها.

وبهذا المعنى تستطيع الحركة الإسلامية عن طريق التربية الإسلامية، وعن طريق التراكيب والتنظيمات المجتمعية الإسلامية أن تنطلق باستمرار – ويكون هذا هو المعنى الصحيح لكلمة أو شعار "أن الإسلام نظام

حياة يصلح لكل مجتمع ولكل جيل". إن التربية الإسلامية ترتكز على دراسة القرآن الكريم وسنة الرسول، وتقوم على فهم التاريخ الإسلامي وتمحيصه، إنها التربية التي تنسق بين الجذور التي ترتكز عليها وتصدر عنها، وبين دراسات العلوم الحديثة كلها أو ما يسمونه بسنن الله الكونية، وتوفق بين القيام بالبحث العلمي في كافة ميادينه، والاسهام في المخترعات العلمية كلها، والمشاركة في إحداث التقدم فيها وأساليب استغلالها، وأساليب زيادة كفاءتها، والتدريب عليها، والاستفادة منها.

كل هذا في إطار المعرفة الحقيقية بأهمية العصر ولقد أقسم الله به {وَالْعَصْرِ {1} إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ {3} سورة "العصر 1:3".

وفي إطار ذكر الله الدائم والستعانة به { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قال يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} "الزخرف 36:38".

وذكر الله الدائم كفيل بألا ننسى بأننا على الأرض لنعبده سبحانه وتعالى { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } "الذاريات 65"

دور الجامعات في الوطن العربي والإسلامي:

يلاحظ المفكرون أن الأمة العظيمة لا تحيا في الماضي ولا تحيا في الحاضر ولا تحيا في المستقبل، وإنما تحيا وبعد الزمن صفحة مفتوحة – تحيا

في الماضي بجذورها وتحيا في الحاضر بمعاشها وتحيا في المستقبل بتطلعها، ولا تستطيع ونحن أمة عظيمة أن تحيا في هذا كله إذا استطعنا أن ننسى أو نتناسى التاريخ – وليس التاريخ أحداث الماضي وإنما التاريخ دروس وعبر الحاضر مواضع أقدام – إنما الحاضر كل ما هو قائم في ضوء ما كان، وكل ما سوف يكون في ضوء ما هو قائم الآن.

والسؤال الصعب الذي لابد وأن نوجهه لأنفسنا هو كيف ننجح في الجامعة؟ وأقول السؤال الصعب لأني لا أتحدث عن النجاح بمعنى الحصول على تقديرات، وإنما أتحدث عن نجاح الجامعة نفسها، إن دخول الطلاب الجامعة وحصولهم على مجموعة من التقديرات العالية والشهادات لا يعني نهاية المطاف، فقد ينجح الطالب ولا تنجح الجامعة وعند ذلك يفقد نجاح الطالب كل معنى له.

إن الأشياء تستمد قيمتها من مغزاها ومعناها، وإن الأشياء تستمد معانيها من قيمها، وإن الشهادة إنما تستمد قيمتها مما تعنيه، وأن النجاح إنما يستمد معانيه، وأن الشهادة إنما تستمد قيمتها مما تعنيه، وأن النجاح إنما يستمد قيمته مما يعنيه، وأن المال والثروة والمجد والسلطان هذه الأشياء كلها التي نتمناها – إنما تستمد قيمها من معانيها، ومعاني الأشياء علم كبير، لأن معاني الأشياء ترتبط بالقضايا والأفراد والأشخاص والمجتمع.

ولكي أتحدث عن الجامعة؟ وكيف تنجح؟ لا تقصر؟ فإنني أقف هنيهة لأقول:

- ما الجامعة؟ وما قيمتها؟ وما وظيفتها؟ وهل وظيفة جامعة قطر مثلاً هي وظيفة جامعة في بريطانيا؟

إن أشهر مهام الجامعة أنها تخرج الطلاب، ولكن هذا ليس أهم مهام الجامعة إن الجامعة لها مهام أخرى مرتبطة بمهمة المتجتمع نفسه - هذا المجتمع ماذا يريد؟ وأين يتحرك؟ هل يتحرك وحده أم يتحرك وبجانبه مجتمعات أخرى، بعضها تقدم وبعضها تخلف؟ بعضها تجاوب وبعضها توقف - هل نحن وحدنا على هذه الأرض أم أن معنا على هذه الأرض آخرون؟ هل نحن على هذه الأرض وهذا منتهى الحياة؟ أم أن الحياة تتبعها حياة أخرى؟ هل هناك فرق في تطور مهمة المجتمع ومهمة الفرد على المجتمع؟ ومفهوم النجاح ومفهوم المجد ومفهوم العظمة بالنسبة لفرد يرى أن حياته على الأرض هي نهاية المطاف، وفرد آخر يرى أن هناك حياة أخرى يحاسب فيها.

هل نحن أصحاب رسالة؟ وما هي هذه الرسالة؟ هل الإنسانية المعاصرة سعيدة؟ وإذا كان البشر في مشارق الأرض ومغاربها حيارى، وإذا كانت هذه النجاحات التي يحققها الشرق والغرب والشمال والجنوب لم تحقق لهم السعادة فما الذي نستطيع أن نعطيه لأنفسنا ثم نستطيع أن نقدمه للآخرين والذي يدونه سوف نظل على هامش الحياة؟ نحن أصحاب كرامة وأصحاب مجد ولا أقول، كنا، لأن حضارة الإسلام لم تكن صفحة من التاريخ طويت واندثرت نحن الآن وغداً وكنا، فالأمم العظيمة هي الأمم الحية، وأن معنى الحياة نفسه أننا كنا رمزاً إلى الماضي

وإلى الحاضر وإلى المستقبل - وبدون التنبه لهذه الأشياء ولحركة التاريخ والتطلع إلى المستقبل فإن الحية تفقد معناها ونصبح على هامش الحياة - وعندما نكون على هامش الحياة فلا يهم ما الذي نتظره من الجامعة؟ لا يهم ما الجامعة؟ لا يهم ما النجاح؟ لا يهم ما المجد؟.

عندما نسأل ما الذي نتظره من الجامعة فمعنى ذلك أننا ناس لنا قيمة ولا تكون لنا قيمة إلا لأن لنا معنى، وأبعاد، إلا لأننا أمة لها معنى وأصحاب رسالة ونستطيع أن نمتلئ بالثقة، وعندما نتحدث عن أنا مسلمون فإن كلمة الإسلام ليست شعاراً يرفع، وليست كلمة تقال وليست وثيقة تعرض في الزاد ليتحصل بها على كسب، إنما نقصد بها حديثا صامتا مستمرا بيني كفرد وبين الله عز وجل - بينك كفرد وبين الله عز وجل - حديث لا يسمعه أحد فلنتناول أبعاد الحاضر التي يتحرك فيها المجتمع العربي - أبعاد الحاضر الذي نجد الآن أنفسنا فيه أننا أصحاب عقيدة إسلامية، وإذا كنا لا نعرف هذه العقيدة على وجه التحديد وعلى وجه اليقين فإنها مهمتنا نحن وليست مهمة أي طرف آخر أن يتعرف عليها وفي الحديث الشريف "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"، وإذا كنا نحن في هذه الحالة رعية فنحن رعاة أيضاً، إن عقيدتنا هي الإسلام ولكننا نعيش على أرض العرب، نعم نحن عرب، فما معنى كلمة عرب في العصر الحاضر؟ العرب في العصر الحاضر يعيشون في وسط الكرة الأرضية - على بقعة من الأرض تمتد بالطائرة النفاثة على مسافة ثماني ساعات بالطيران المتواصل- بقعة من الأرض تمتد من الخليج

وحتى المحيط الأطلنطي، وهي ليست بقعة شاسعة فقط ولكنها أيضا بقعة ثرية، وأن ثراء هذه الأرض بما عليها من الخيرات يفوق ثراؤها بما في باطنها من الخيرات – وهي تكاد تكون أعظم خيرات العصر– من ناحية الخيرات فلقد أعطانا الله تعالى كل شيء ولكن هذه الخيرات لها معنى، إن هذه الخيرات إما أن تكون من معاني القوة وإما أن تكون معنى من المعاني التي تؤدي بالآخرين إلى الطمع فينا، ولقد انتقد السناتور الأمريكي فول برايت العرب مرة لكثرة مباهاتهم بما لديهم من الخيرات فقال:

"ما لهم يباهون بما لديهم، وهم بما لديهم كالغزلان يباهون الذئاب بطيب لحومها".

فقد شبهنا – بالذئاب– بالغزلان تباهي بما لديها بطيب لحومها – ولا يمكن أن يحمل هذا المعنى إلا إغراء الآخرين فينا.

ولكن القضية فيها مجموعة من الأبعاد فنحن لا نستطيع أن نعيش إلا في القرن العشرين، والقرن العشرون قرن له معنى من ناحية العلم ومن ناحية التقنية، ومن ناحية النظام الاجتماعي ومن ناحية التطلعات – هذا الأشياء كلها إما أن تكون قادرة على استيعابها كمعاني، وبالتالى قادرين على المشاركة فيها ثم الإمساك باعنتها أو أن نكون تابعين وليس هناك شيء آخر – وهذا هو الذي تنتظره الجامعة من أبنائها – هل تخرج الجامعة من أبنائها أفرادا تابعين أم تخرج الجامعة أمة؟

إذا كانت الجامعة تخرج تابعين فإن المجتمع ليس في حاجة إلى هذا النمط من الجامعات – أما إذا كانت الجامعات تخرج أمة تخرج مجتمعا

تخرج فئة أو فئات – تخرج قطاعا من القادرين على التحرك في القرن العشرين والإمساك بأعنته – فهذا هو ما ننتظره من الجامعة.

الجامعة إذن تنتظر من أبنائها مجموعة من الصفات والخصال ..

أما الصفة الأولى فهي:

الإنسان القادر على معرفة نفسه – القادر على الثقة بنفسه كيف يستطيع أن يتحمل مسئولية؟ كيف يستطيع أن يتحمل القدرة على الحركة المستمرة إلى الأمام؟

هذا الفرد يحيا في الجامعة ضمن مجتمع جامعي – هذا المجتمع الجامعي لكي يكون ناجحا فيه لابد وأن تكون فيه مجموعة من القدرات – القدرة على التعامل مع الآخرين والقدرة على التعامل مع النفس.

أما القادر على التعامل مع الآخرين – فهو الشخص الذي يستطيع أن يعطي ويأخذ – ولا يستطيع الإنسان أن يستغني عن الأخذ – ولكي يكون الأخذ بكرامة فلابد وأن نعطي وأن يكون العطاء بسخاء وما لم يستطع الإنسان أن يتعامل مع الآخرين فسوف يظل فردا، وفي المجتمعات الحديثة لا حياة للأفراد، وعندما ما أقول لا حياة للأفراد أقصد هذا الصنف من الأفراد الذين لا ينشغلون إلا بتوافه الأمور هؤلاء الذين لا يعيشون إلا على حالة الحياة، هؤلاء الأفراد الذين إما طالت أعمارهم أو قصرت فإنه سيان، عاشوا أو اندثروا سيان، لا يتركون بصمات حيثما يوجدون ولا يفتقدون حين يغيبون.

أما غير القادر على التعامل مع النفس – فهو الذي لا يستطيع أن يتعامل مع نفسه – هو إمعة – والإمعة هو الذي ينظر إلى الآخرين ليفعل ما يفعلون – الذي لا يستطيع أن يتحمل أن يكون له موقف يعلنه ولا رأي يعبر عنه – وإذا كان الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون صدى للآخرين ولا يستطيع إلا أن يكون مرددا لما يقولون – فلا يمكن أن يكون ذا قيمة لا لنفسه ولا للآخرين.

الشاب الجامعي الذي نريده هو إنسان قادر على أن تكون عنده عقيدة – قادر على أن تكون عنده ثقة بنفسه وقادر على التعامل مع الآخرين، قادر على أن يكون مستقلا.

والإنسان في كل مراحل حياته ينمو ويتعلم حتي النهاية ينمو ويتعلم – ولأن الإنسان في كل مراحل حياته ينمو ويتعلم فهناك محوران في حياة أي إنسان سواء صغيرا كان أو كبيرا – محور الانطلاق ومحور الانضباط – الإنسان لابد وأن يكون منطلقا بمعنى من المعاني – لأنه ما لم ينطلق لكي يكون تعبيره حرا متسعا ذا آفاق عريضة فإنه لا يستطيع أن يحقق لنفسه نموا، بل إن الحياة تفتقد بهجتها وتفتقد معناها – لأن الإنسان حينئذ لا يستطيع أن يحقق مستقبله ولا أن يحقق ذاته – إلا أن الانطلاق وحده لا يجعل من الإنسان إنسانا قادرا على الفعل والعطاء الإيجابي – لابد من عنصر آخر وهو الانضباط – هذا الانضباط هو الذي يجعل الإنسان يحضر في الموعد المطلوب وينجز في الموعد المطلوب، ويحقق المطلوب ويعطي المطلوب ويحدد ما يطلبه من الآخرين.

هـذا هـو المحـور بـين الانطـلاق والانضـباط - بـين الاسـتقلال والاعتماد على الآخرين- بين الحرية وبين الشعور بالمسئولية - بين التحرر وبـين الانحـلال. تعبيران لابـد وأن نكـون قـادرين على تنميتهمـا بالنسـيبة للشـاب الجـامعي بـل بالنسـبة لأي شـاب - مـن هـو المتحـرر؟ ومـن هـو المنحل؟ إن اللبس في هذه التعبيرات هو كاللبس بين الربا وبين التجارة - اللبس هنا يستند إلا أن كلا مـن التحـرر والانحـلال بهمـا بعـض العنـاصر المشـتركة - المتحـرر والمنحـل منطلقـان - عنصر الاخـتلاف البـارز الـذي يجعلنا تميز بينهما هو أن المتحرر منطلق من وضع قائم إلى وضع غير ذي هدف، والمتحرر رافض الخطأ ومنطلق إلى الصواب وهذا هو معنى التعبير القـرآني " وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْرُهُ فُرُطًـا" (الكهـف 28)، وذلـك بعـد قولـه تعالى: "ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا " وهذا هو المنحى.

المتحـرر اعتراضـه على الـدافع أ و الحاضر انطلاقـا مـن الرغبـة في التقـدم والتحسـين - هـي البصـيرة الثاقبـة الـتي تـرى الخلـل وتنطلـق إلى الإصـلاح - أمـا البصـيرة الـتي لا تـرى الخلـل وتسـتكين إلى الحاضر وإلى الواقع وترفض تغيره لمجرد الإبقاء عليه، فهذا أيضا مرفوض، لأنه لا يصنع الإنسان الحر ولا يصنع التقدم ولا يصنع الكرامة - وهذا أيضا من محاور النضج المطلوب في الشباب الجامعي.

الشـاب الجامعي إذن لابـد وأن يتسم بهذه الصفات التي أضيف إليهـا الآن عنصر النضـج، والنصج لا يأتي مـرة واحـدة - والإنسـان لا

يتطلع إلى النضج في نفسه فجأة - بل يظل مهما عظم ومهما ظن في نفسه الخير - فيه عنصر من عناصر الطفولة - وإننا نلمس عناصر الطفولة حتى في عظماء الرجال - بل وفي العديد من المجالات - حتى عظماء رجال الفكر الحنين - بل طلب الرحمة - وهو عنصر من عناصر الطفولة والبراءة، بل إن الإنسان كله يحتاج إلى المودة والرحمة - وهي عنصر من عناصر الضعف الإنساني الذي يتطلع إلى رحمة الآخرين وإلى رحمة الله والذي يجعل الإنسان يخشى أن يتعامل بسوء الحساب - وسوء الحساب هو الحساب الدقيق - وليس الحساب الظالم.

بالإضافة إلى هذا كله فإني أعود إلى عنصر الانضباط - وهو العنصر المهم في الجامعة، لأن المتعلم يحتاج إلى الانضباط - الدرس يحتاج إلى الانضباط - النمو يحتاج إلى الانضباط - كلما صغر الطفل احتاج إلى مزيد من الانطلاق وإلى قليل من الانضباط، ولذلك فإنه يحتاج إلى مزيد من الإشراف - ولإحداث التوازن الصادق - كما كبر الإنسان - ثقلت حاجته إلى الإشراف وازدادت قدرته على إحداث التوازن بين الانضباط والانطلاق.

وفي الجامعة يحتاج الطالب أيضا إلى الانطلاق والانضباط - في الجامعة مزيد من الحرية ومزيد من المسئولية - أمام الشباب الجامعي خيارات أعظم ولكنه يتحمل مسئولية ذلك، لأنه راع أكبر مما كان عليه، ولكن تكون الجامعة قادرة على تحديات العصر والاتصال بها - فلابد من أن تستشعر مسئولياتها وترفض التضاؤل أمام هذه التحديات وأمام

تحديات الدول العظمى، لكن الجامعة لا تتحقق بالدرس فقط - بل بالإنسان الذي يستطيع أن يقرأ الكتاب ويتفاعل مع إخوانه ويكون له رأي وقيادة - والقيادة تعني أن يتبع الرأي الصائب عندما يجده عند الآخرين، ويفرض احترامه على الآخرين فيتبعوه عندما يكون صاحب الرأي الصائب - ليس في التفكير الجامعي ولا في الحياة الجامعية أفكار تتبع طاعة عمياء، لكن هناك أفكار تخضع للفحص وتخضع للفكر وتخضع لمسيرة الأحرار، الأحرار الذين يستطيعون أن يميزوا بين النافع والضار.